الحرية والقوت أهم أهداف البحوث الاجتماعية في العصر الحديث

للأستاذ محمد لطفي جمعه

أما الحرية فقد خبط الناس وتبلبلوا فى إدراك معانيها، فتوهم معظم الجهال أو المتسرعين بالأحكام المبتسرة والسابقة لأوانها، أن الحرية تعنى تمكين صاحبها من أداء أى عمل يقوم بخاطره أو يدور بخلده . وهـذا الوهم الذى يسود الشرق يعود إلى إفراط الحكام فى قديم الزمان بل إلى عهد قريب فى الاستبداد بأفراد الأمة ، وتطرف الحكام فى تطبيق السلطان الشرعى وقوة الدولة فى منافعهم الذاتية مغضين عن مصلحة الرعية . وقد سرت هذه الخصلة الذميمة من الخليفة إلى السلطان إلى رئيس الشرطة حتى وصلت إلى المأمور والعمدة وشيخ البلد والأستاذ (الذى كان يجبى الضرائب) ثم إلى الفقير وعسكرى الداورية ! . . فحدث فى نفوس المحكومين رد الفعل الذى يشبه نتيجة الكبت والإرهاق فى نفوس الأطفال، وكفر الأفراد بالسلطة كما يكفر الثائر بالقانون ويخرج عليـه ، وهو ما وقع فى تاريخ سائر الثورات فى بغداد وباريس والقاهرة ومدريد وروما وأثينـا والقسطنطينية، ونشأ عن المغالاة فى ظلم الحاكم مغالاة من جهة المحكوم فى طلب الحرية ، والتوسع فى فهم معناها ومرماها .

فاذا طالت فترة النزاع بين الحاكم المستبد والمحكوم المظلوم مـدة أجيال كما حدث فى فرنسا وتركيا، فان الأولاد يولدون وهم يبغضون الاستبداد ويقاومونه بكل قواهم . وقد تصل بهم هذه الحالة إلى الاستشهاد والتضحية فى سبيل الخلاص والتحرر لأنه وقر فى أذهانهم وجرى مع دمائهم فى عروقهم أن سلطة الحاكم لا حد لهـا من الوجهتين الشرعية والوصفية، وأن المحكوم لا يمكنه أن يعترض الحاكم فيرغمه على الحرب ، ويسخره بغير مقابل، ويحصل منه الضرائب والمكوس ، فلا أمل له إذن فى الحرية إلا بزوال هذا النظام الجائر فى نظرهم.

ولكن هذا الفهم للحرية كان فهما خياليا وإن هذا النوع من الحرية الوهمية لا يوجد إلا عند دعاة الفوضى قبل أن يؤسسوا دولة مسئولة (كما كان شأن ثوار روسيا قبل سنة ١٩١٧) أو عند فلاسفة النظريات الاجتماعية التاريخيه مثل ديدرو Diderot, ومابلي Mably وچان چاك روسو [١] فقد زعم هؤلاء الثلاثة ولا سيما الأخير منهم أن النـاس قبل

---

(١) وقد سبقهم جميعاً أفلاطون فى كتاب " الجمهورية " .

إنشاء حياة المجتمع كانوا فى "عصر ذهبي" age d'or متمتعين بحرية غير محدودة فى الأحكام والعيش والاقتصاد، إلى أن أجمعوا فيما بينهم على التعاقد مع من اختاروهم حاكمين على التنزل عن بعض حريتهم لقاء تعهد الحاكم والتزامه بالدفاع عنهم فى داخل المجتمع وخارجه. ولكن هذا التفكير لم يكن إلا وليد الضرورة وتعبيرا عن سخط المحكوم المظلوم على الحاكم الظالم. أما الفوضويون فقد كانوا يقاومون الحاكم المستبد عن بينة وعلم سابق ولا يتمحلون الأعذار، ولا يتحلون التعاليل، وما زالوا دائبين فى معاداتهم حتى صار لهم من القوة ما تمكنوا به من إقصاء المستبد، وتأسيس عرش للمساواة.

ومعظم الأضرار التى أصابت الجماعات والأفراد راجعة إلى الوهم الذى كان سائدا وهو وجود الحرية المطلقة التى لا تكون حتى فى عالم الحيوان.

والغاية التى وصل اليها الاجتماعيون أن ينال الفرد من الحرية فى أقواله وأفعاله بحيث لا يمس حقوق الآخرين. ووصلت هذه النظرية الى منتهاها حتى وضع لها رجال الثورة الفرنسية تعريفا عاما فى "اعلان حقوق الانسان والمواطن" فقالوا "الحرية حالة يستطيع صاحبها أن يقوم بكل ما يريده، وحده فى ذلك ضرر الغير" وقد أصاب الفرنسيون عندما شملوا الانسان (homme) والمواطن (citoyen) يقصدون بذلك الى أن الحرية المباحة لا تناقض الحكم المنصف، ولا يمكن تخيلها بدون نظام حكم عادل يؤيدها ويغذيها ويدافع عنها ويكون القائم على هذا الحكم بمثابة القاضى بين المتنازعين فيبين حدود الحرية اللازمة لكل فرد.

وقد شاءت الأقدار والطبيعة أن المجتمع لا يزدهى ولا يزدهر ولا يسفر عن مظاهر قوته وسعادته كما تتفتح الزهرة عن أكمامها إلا فى ظل الحرية. فكانت الحروب دائما معطلة لنصيب وافر وحائل قوى دون انتشار ذلك الظل الوارف لأن الحرب بطبيعتها بمثابة المرض الحاد الذى يصيب كيان المجتمع وقد يصير مزمنا إذا طال أمده. فيعتدى الحاكم مكرها أو مدفوعا بمصلحة المجتمع على كثير من مظاهر الحرية، وليس هذا التعدى استبدادا ولا ظلما ولكنه نوع من الوقاية التى تتخذ لون التشريع الاستثنائى، كما يفعل الطبيب والمرض فى علاج العليل. ولكن الفرد الذى فطر على عيشة السلم والاستمتاع بحقوقه فى حدود معينة قد يختلط عليه الأمر ويلحقه الضجر والغيظ، وقد كان من أهم مظاهر هذا السخط فى البلاد المتمدنة تقييد حريات القول والكتابة والاجتماع وخنق الأنوار وتحديد الأقوات والأرزاق بالبطاقات والتعرض للمدنيين فى بعض الأعمال المريبة فى ظاهرها كحرية التنقل والاتجار ببعض المواد وعدم المغالاة فى تسعير البضاعة والحد من أرباح الأفراد للصالح العام وغيره وغيره. ولما كانت الحكومات هى المسئولة عن المحافظة على حرية المواطنين بما تضعه من التشريع الوقتى

أو الدائم فالأشخاص الميالون للاستبداد بفطرتهم يتخذون من فترات الحروب وسيلة ومثابة للعبث بحرية الأفراد .

ولم يكن تضييق الحرية الأمر الوحيد الذى أعقبته الحروب ، بل أعقبت أيضا ضيقا اقتصاديا يكاد يكون ملازما لطبيعتها فى كل زمان ومكان. وأهم أنواع الضيق ما كان منصبا على القوت ، فان الفلاح المصرى يأكل خبز الذرة من غير إدام أو يأدمه بقليل من الفول والبصل والجبن القديم أو سائل الجبن (المش) ونادرا ما يأكل بيضة أو يشرب لبنا أو يخبز فطيرة بالسمن أو الزيت وفى الأندر يأكل لحما . ولا يتكلف هذا القوت الضرورى أكثر من قرش أو قرشين . وقد يكون صاحب الطين ومالك الأرض من الأغنياء المفرطين فى الطعام فيتذوق فى كل يوم ألوانا من اللحم والسمك والطير والفاكهة والخضر المجلوب فى العلب أو الطازج الغالى كعش الغراب أو كشك الماظ وقد لا تقل نفقة طعامه فى اليوم الواحد عن جنيه أو جنيهين ، هذا غيره ينفقه فى الولائم والمآدب ويبعثره على موائد القمار والشراب المحرم . وقد كان الفلاح قانعا بما قسم له على الطريقة الشرقية من وجوب الرضى بما تيسر من الرزق ، مفترضا أن هذه القناعة أو هذا الرضى جزء من المعتقد الدينى ، ولكن الحرب غيرت الأحوال وبدلتها ، دون أن يكون للفلاح دخل فى التحويل والتبديل ، فان عيش الذرة نفسه أصبح بعيد المنال بعد أن اختفى القمح أو كاد يختفى من الحقول والأسواق

بيد أن الفلاح وإن جاع فانه قانع ولكن الاجتماعى ينظر الى المسألة من وجهة أخرى وهى وجهة الانتاج فانه بينما كان ينفق القرش والقرشين على قوته كان منتصب القامة شديد العضل ، يعمل طول النهار فى حرارة الشمس ولا يشكو تعبا ويرقد الليل كله ولا يشكو أرقا حتى وصفه بيير لوتى فى كتابه عن مصر " موت أنس الوجود la mort de Philae" بأنه "الرجل البرنزى" . ولكن منذ شكا الفلاح الجوع قلت قدرته على العمل والانتاج ، وأصبح معرضا للامراض والعجز عن تموين البلاد بعمله المستمر كعادته ، فان الطعام مهما قل أو تنوع عماد الصحة البدنية وأصل القوى الجسدية والمعنوية ، وليس الغالى منه أصلح من الرخيص للقيام بالأغراض التى يؤكل لأجلها .

وهذه حكمة ربانية أرادتها العناية الإلهية فان الطعام الذى يأكله الفقير (لأنه فى متناول يده) أغذى له وأجدى عليه وأنفع وأشهى لديه من الذى يدسه الغنى فى جوفه . وكنا نقول هذا القول اعتباطا ونتشدق به تعزية وتسلية على حد قول الثعلب الذى اشتهى عنقود العنب فلما عجز عن مطاولته ذمه زاعما أنه حصرم غير ناضج ، الى أن ثبت بالبحث العلمى أن طعام الفقير الرخيص كاف لتغذية جسم الانسان مثل طعام الغنى الثمين ؛ بل هو أفيد منه فنى الخبز والفاكهة الرخيصة كالتوت والجميز والبقول كالفول والعدس والحمص واللوبيا والخضر الزهيدة الأثمان

كالفجل والبصل الأخضر والجعضيض والسريس وفى البيض واللبن ما يفوق الاغذية باللحوم والأسماك والطيور الدسمة ، ويجعل طاعمها بمأمن من الأمراض التى تصيب صاحب التغذية الغاليـــة كالنقرس وداء السكر وامراض المفـاصل وداء الملوك والتخمة وعسر البول والامساك الخ .

وقد ثبت بالبحث والتجربة أن اليسر والرخاء والنجاة من الضيق الاقتصادى سبيلين معبدين وهما زيادة الدخل فى الفقة وتحصل زيادة الدخل لأهل المملكة المصرية بأن يزيدوا حاصلاتهم الزراعية ويفرغوا ما فى وسعهم حتى تقوم بما هم فى مسيس الحاجة اليه من طعام وشراب وكساء وأن يعملوا على بيع مايفيض عن حاجتهم بأغلى ثمن ممكن (وهذا ما لا يتيسر بتاتا فى أزمنة الحرب ، كما وقع فى تقدير أسعار القطن المصرى فى الحرب الراهنة) ويقوم الاقتصاد فى النفقات بالاكتفاء بما يلزم وعدم الاسراف فى شئ ولاسيما ، اذا كان مما يستورد من الخارج ، وقد أدت طوارئ الحرب الراهنـة الى مايشبه تعطيل البضائع المجلوبة فاقفل باب كبير من النفقات التى كانت محتمة لو أن المواصلات البحرية والبرية بقيت على حالها فى وقت الســلم ، ولو أن إيراد الجمارك معرض للعجز إلا أنه مرجوح بما يعود على الأمة من الادخار والصناعة . والحاجة الملحة تجبر أهل المجتمع على تقليـل نفقاتهم . وان لم يكن راعى الغنم أو عامل المبانى أسعد من عمرو باشا أو بكر بك أو زيد افندى ، فانه قد لا يقل عنـه راحة بال وصحة بدن إن استقام وقنع فى هـذه الظروف القاسية ، ولا سيما اذا فتحت الحكومة عينيها وأذنيها ، واتخذت عصاها لتضرب بها على يد التاجر الشره واللص المشجع للغلاء ، والنصح الى لفيف من الأغنياء البطرانين الذين لا يكتفى الواحد منهم بخمسة آلاف أو ستة آلاف جنيه ينفقها فى العام الواحد ، بينما ألوف من اخوانهم فى الانسانية يحتاجون الى الضروريات .

وقد ثبت لجميع الباحثين فى الاقتصـاد والاجتماع أن نفقات الحاجيات غير كثيرة وانما الكثير نفقات الكماليات فاذا اضطر الانسان الى الاقتصاد فى كمالياته ، اقتصد كثيرا .

وهكذا نرى نظريات علم الاجتماع الحديثة لاتأنف أن تتناول أهم ضروريات الانسان بجانب أسمى مبادئه . وأنه هو المخلوق الوحيـد الذى يؤسس العمران والحضارة ثم يقوض أركانهما فى سبيل الحرية والقوت ثم يخوض غمار المعارك الدامية لاغراض قد تخفى أو تبهم على الأفهام فى أول أمرها ثم يستبين المرء فوائدها العميمة بعد أن تضـع الحروب الطاحنة أوزارها . فيجنى ثمار الســلم والحرب ويعمل دائبا على سعادة الجنس غير ناظر الى مصالح الأفراد الموقوتة ما

محمد لطفى جمعة